المكتبات العربية بين

مقدمة :

منذ وضع الانسان قدمه على ظهر الارض الى أن وضعها على سطح القمر والعقل البشرى لا يكف عن التفكير والابداع ولا يعترف بحدود لآماله وطموحه • وعلى طول الطريق الذى قطعته البشرية منذ أقدم عصورها الى الوقت الحاضر كان هناك العديد من الكشوف والاختراعات التى انتقلت بالانسان من حياته البدائية البسيطة الى حياته الحضرية الحديثة في أعقد صورها • ومن بين تلك الاختراعات الهائلة يقف اختراع الكتابة متفردا باعتباره أهمها وأعظمها على الاطلاق • فيوم بدأ الانسان يسجل أفكاره ومعتقداته حفرا في الصخور ونقشا على الجدران كان بذلك يضع اللبنة الاولى في صرح حضارته • ويوما بعد يوم كان البناء يرتفع وكانت كل أمة تبدأ من حيث انتهت سابقتها فتكمل البناء وترتفع به الى أقصى ما تؤهلها له قدراتها وامكاناتها •

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان الكتابة كانت حجر الاساس في بناء حضارة الانسان التي شادها خلال رحلة الوجود • فكل الجهود

الدكتور عبد الستار الحلوجى

مدرس بكلية اللغة العربية والعلوم
الاجتماعية، بجامعة الامام محمد بن سعود

أمجاد الماضي وتحديات المستقبل

والانجازات الحضارية التى سبقت اختراع الكتابة كان محكوما عليها بالفناء لأنها كانت عاجزة عن أن تبقى عبر الزمان من عصر الى عصر ، وأن تنتقل عبر المكان من وطن الى وطن • وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن كل المحاولات كانت تبدأ من الصفر وتنتهى وهى ما زالت تحفر الاساس تحت سطح الارض • ويوم اخترعت الكتابة ، يومها فقط أتيح للفكر الانسانى أن يتغلب على حدود الزمان وأبعاد المكان ، واستطاع الانسان أن يستفيد من جهود سابقيه على طريق الحضارة وان يتلقف منهم الخيط ويمضى به قدما الى الامام •

وعلى مدى قرون من الزمان عديدة لم يكن أمام الانسانية من وسائل الثقافة والتسلية غير الكتب • وحينما ظهرت الاذاعة والسينما والتليفزيون كاوعية للثقافة والترفيه وكمنافس للكلمة المقروءة لم تفقد الكلمة المكتوبة سحرها وجلالها لان هذه الاجهزة نفسها تستقى مادتها التى تقدمها لجمهور المشاهدين والسامعين من النصوص المكتوبة •

المكتبة ظاهرة حضارية :

وعلى مدى التاريخ كله لم توجد المكتبات في أمة من الامم الا كنتيجة لوجود أناس يعرفون الكتابة ومواد يكتب عليها وتراثا فكريا يحرص الناس على اقتنائه وتداوله · ففى بلاد اليونان ـ مثلا ـ لم تعرف المكتبات الا ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد كاثر من آثار النهضة الفكرية التى قامت على أكتاف بندار واخيل وسوفوكليس ويوريبيدس وهيرودوت وغيرهم ممن أعطوا للفكر اليونانى قيمته الانسانية الخالدة ، وكنتيجة لوجود المدارس الفلسفية التى ارتبطت بالثلاثة الكبار : سقراط وافلاطون وأرسطو ، ولتدفق أوراق البردى المصرى على بلاد اليونان حينما كانت مصر خاضعة لحكم الاسكندر ·

وفي بلاد الرومان لم توجد الكتب والمكتبات الا عندما بدأت الثقافة اليونانية وكتبها تقتحم على الرومان أبوابهم وعندما بدأت لفائف البردى تاخذ طريقها اليهم في القرن الثانى قبل الميلاد ·

ولم تكن الامة العربية بدعا من الامم ، فلم توجد لديها كتب ومكتبات في العصر الجاهلى لان الكتابة لم تكن منتشرة بين الناس ، ولم تكن أدواتها ميسورة لهم ، ولم يكن للعرب في ذلك العصر تراث غير الشعر ، والشعر بطبيعته لا يستعصى على الذاكرة ·

وفي عصر النبى صلى الله عليه وسلم والراشدين من بعده لم يكن لدى العرب نصوص مكتوبة غير كتاب الله فقد روى مسلم في صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) · وروى عن أبى هريرة أنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الاحاديث فقال : « ما هذا الذى تكتبون » ؟ قلنا : أحاديث سمعناها منك · قال : « أكتابا غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الامم من قبلكم الا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله · » قال أبو هريرة : فقلت أنتحدث عنك يارسول الله ؟ قال : « نعم ، تحدثوا ولا حرج ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (٢) » ·

وحتى بالنسبة للقرآن الكريم، فقد كان الاساس فيه الحفظ لاالكتابة بدليل قولهم : «لا تاخذوا القرآن من مصحفى ، ولا العلم من صحفى » · ولعل هذا هو ما يفسر لنا أن ضبط الكلمات العربية بالحركات قد سبق اعجام المتشابه من الحروف للتمييز بينها في الكتابة ، فقد كان القرآن محفوظا في الصدور ولم يكن يخشى على المسلمين أن يصحفوا فيه وانما كان يخشى عليهم أن يلحن الاعاجم منهم خاصة في قراءة ما يحفظون ·

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، حـ ١٨ ، ص ١٢٩ (ط · المطبعة المصرية ، ١٩٣٠) ·

(٢) تقييد العلم ، ص ٣٣ (ط ، دمشق بتحقيق يوسف العش) ·

ولقد استمر تحرج المسلمين من كتابة شيء سوى القرآن طوال القرن الاول الهجرى • وعندما دون الحديث في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ فتح الباب على مصراعيه أمام حركة تدوين العلوم عند العرب •

واذن فلم يكن لدى العرب في القرن الاول الهجرى تراث مكتوب يمكن أن يكون نواة للمكتبات • ومع ذلك ففضل هذا القرن على المكتبات الاسلامية لا ينكر • ففى الربع الاول منه فتحت مصر ودخل البردى آفاق الحياة العربية كمادة صالحة لتلقى الكتابة أفضل بكثير من المواد التى كانت مستعملة من قبل كالعسب والكرانيف والعظام واللخاف وغيرها من المواد التى يتعذر كتابة نصوص طويلة عليها ، ويتعذر تكوين كتب منها ، وفيه كثر عدد الذين يعرفون الكتابة كثرة هائلة بالقياس الى القرن السابق على ظهور الاسلام • فقد بلغ من حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم اتباعه ان جعل فداء أسرى المشركين في غزوة بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة • ويكفى للدلالة على انتشار الكتابة وكثرة الكتاب في ظل الاسلام أن نذكر أن كتاب النبى صلى الله عليه وسلم قد بلغوا أكثر من أربعين كاتبا في بعض الروايات •

واذن فقد كان القرن الاول الهجرى فترة الحضانة بالنسبة لتاريخ الكتب والمكتبات الاسلامية • فيه توافرت المواد التى تصلح لان تكتب فيها الكتب ، وفيه كثرت أعداد الكتاب وتضاعفت ، وفيه وجد التراث الخالد الذى يحرص المسلمون على جمعه وتناقله والحفاظ عليه متمثلا في أصلى الشريعة الاسلامية الغراء : كتاب الله وسنة رسوله •

وباكتمال العناصر الثلاثة لوجود المكتبات خلال القرن الاول الهجرى ، وبزوال الحرج من التوسع في استعمال الكتابة مع بداية القرن الثانى ، يمكن لنا أن نتلمس النشاة الاولى للمكتبات الاسلامية خلال هذا القرن الذى قدر له ان يشهد ثلاث ظواهر حضارية كان لها تاثيرها البالغ على عالم الكتب والمكتبات •

اولى هذه الظواهر هى حركة التاليف العربية التى امتدت جذورها الى النصف الثانى من القرن الاول وان لم تتضح معالمها الا خلال هذا القرن الثانى الذى شهد رجالا كابى عمرو بن العلاء الذى ذكر الجاحظ ان كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملات بيتا له الى قريب من السقف (١) ، والامام الشافعى الذى ذكر له ابن النديم في فهرسته اكثر من مائة كتاب ، وجابر بن حيان الذى احصى له صاحب « الفهرست » حوالى ثلاثمائة من الكتب والرسائل التى رآها بنفسه أو ذكرها له الثقات الذين شاهدوها •

ولقد نشطت حركة التاليف في هذا القرن في ظل مجالس الاملاء التى كانت بمثابة محاضرات عامة يلقيها العلماء في مختلف فروع المعرفة ، وكان من نتيجتها كتب كثيرة تحمل اسم «الامالى» افرد لها حاجى خليفة فصلا خاصا بها في « كشف الظنون » واقدمها امالى الامام أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى (ـ ١٨٣ هـ) في الفقه ، يقال انها بلغت اكثر من ثلاثمائة مجلد • (٢) وفي «تاريخ بغداد» تطالعنا الصورة الكاملة لمجالس الاملاء هذه وما وصلت اليه من ضخامة في تلك الحقبة من التاريخ • ويكفى ان نذكر للدلالة على ما نقول أنه في عصر المامون أملى الفراء كتاب المعانى واجتمع له خلق كثير لم يمكن حصرهم ، وأحصى من حضر من القضاة فبلغوا ثمانين قاضيا ، (٣) وان مجلس سليمان

---

(١) البيان والتبيين ، حـ ١ ، ص ٣٢١ (ط • لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ بتحقيق عبد السلام هارون) •

(٢) كشف الظنون ، حـ ١ ، ص ١٦٤ (ط • وكالة المعارف باستانبول ، ١٩٤١) •

(٣) تاريخ بغداد ، حـ ١٤ ، ص ١٥٠ (ط • الخانجى ، ١٩٣١) •

ابن حرب الواشجى (ـ ٢٢٤) كان يحضره اربعون الف رجل (١) ، بينما بلغ مجلس عاصم الواسطى (ـ ٢٢١) اكثر من مائة الف شخص كما يروى لنا الخطيب (٢) .

ولو لم تبلغ مجالس الاملاء هذا القدر من الضخامة ما ظهرت طبقة المستملين الذين كانوا يقومون بما تقوم به مكبرات الصوت في العصر الحديث ، فقد كانوا يرددون كلام الشيخ وراءه حتى تسمعه جموع الحاضرين ، فصاحب « تاريخ بغداد » يروى لنا ان سليمان الواشجى سئل في احد مجالسه عن حديث حوشب بن عقيل فقال : « حدثنا حوشب بن عقيل » اكثر من عشر مرات والناس يقولون لا نسمع ، « فقال مستمل ومستمليان وثلاثة ، كل ذلك يقولون لا نسمع ، حتى قالوا : ليس الراى الا ان يحضر هارون المستمل » (٣) لما عرف به من جهارة الصوت .

وكانت الظاهرة الثانية التى شهدها هذا القرن هى دخول صناعة الورق بغداد في زمن الرشيد . فحتى ذلك الوقت كان البردى والرق يتعاونان معا في حمل أمانة الكلمة المكتوبة ، وكان الرق ابقى دواما ولكنه اغلى ثمنا واندر وجودا ، ومن أجل هذا كان لا يكتب فيه الا كل أمر يراد له طول البقاء أما الورق فقد عرفه العرب اول الامر مجلوبا من الصين ثم مصنوعا في سمرقند ، ولكنه لم يصبح في متناول كافة الناس الا بعد أن صنع في عاصمة الخلافة العباسية . ولم تلبث كواغيد سمرقند ان « عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الاوائل يكتبون فيها لانها احسن وانعم وأرفق وأوفق » على حد تعبير الثعالبى (٤) .

أما الظاهرة الثالثة التى شهدها هذا القرن فكانت مرتبطة بصناعة الورق ونتيجة طبيعية لانتشاره بين مختلف فئات المجتمع ، ونعنى بها صناعة الوراقة . وهى ـ كما يعرفها ابن خلدون ـ عملية « الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين » (٥) . وقد كان لها سوق كبيرة في بغداد يحدثنا اليعقوبى في النصف الثانى من القرن الثالث أنها كانت تضم اكثر من مائة حانوت (٦) . ولم تكن حوانيت الوراقة هذه مجرد دور للنسخ وبيع الكتب ، وانما كانت مجالس للعلماء والشعراء (٧) وملتقى للطبقات المثقفة .

---

(١) تاريخ بغداد ، حـ ٩ ، ص ٣٣ .

(٢) تاريخ بغداد ، حـ ١٢ ، ص ٢٤٨ .

(٣) تاريخ بغداد ، حـ ٩ ، ص ٣٤ .

(٤) لطائف المعارف ، ص ٢١٨ (ط . دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٠ بتحقيق ابراهيم الابيارى وحسن كامل الصيرفى) .

(٥) المقدمة ، ص ٩٦٢ (ط . لجنة البيان العربى ، ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢ بتحقيق على عبد الواحد وافي) .

(٦) البلدان ، ص ١٣ (ط . ٣ ، المطبعة الحيدرية بالنجف ، ١٩٥٧) .

(٧) مناقب بغداد ، ص ٢٦ (ط . مطبعة دار السلام ببغداد ، ١٣٤٢ هـ ، بتحقيق محمد بهجة الأثرى) .

● المكتبات الاسلامية في العصور الوسطى :

في ظل هذه العوامل الثلاثة كان طبيعيا أن تكثر المصنفات وأن توجد المكتبات منذ القرن الثاني للهجرة • والشيء اللافت للنظر حقا أن الامة العربية قد عرفت في تلك الفترة المبكرة من تاريخها كل أنواع المكتبات التي يتباهى بها العصر الحديث ، فكانت هناك المكتبات الخاصة التي ينشئنها الافراد لانفسهم كخزانة يحى بن خالد البرمكى التي يذكر الجاحظ أنها كانت تضم ثلاث نسخ من كل كتاب (١) ، وخزانة الواقدى التي يذكر ابن النديم أنها بلغت ستمائة قمطر كل منها حمل رجلين (٢) ولا نكاد نصل الى القرن الرابع الهجرى حتى نرى المكتبات الخاصة وقد انتشرت في مختلف انحاء الدولة الاسلامية ، ومن أشهر تلك المكتبات خزانة ابن العميد التي كان مسكويه المؤرخ خازنا لها وذكر لنا انها كانت تحمل على مائة وقر وزيادة (٣) ، وخزانة عضد الدولة البويهى الذى « لم يبق كتاب صنف الى وقته في أنواع العلوم كلها الا وحصله فيها » (٤) ، وخزانة الصاحب بن عباد التي « اشتملت على مائتين وستة آلاف مجلد » (٥) والتي قال عنها آرثربوب Arthur Pope انها كانت تضم من الكتب ما يعادل ما كان موجودا في مكتبات أوربا مجتمعه (٦) •

وفي الوقت الذى انتشرت فيه المكتبات الخاصة بكثرة في منطقة العراق وما وراء النهر بوصفها مركز الثقل الحضارى أيام بنى العباس ، طفت في الاندلس موجة اقتناء الكتب والعناية بتجليدها وزخرفتها ، وكانت قرطبة « اكثر بلاد الاندلس كتبا وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب » كما يقول المقرى (٧) • ويكفى أن نذكر رجلا كالقاضى أبى المطرف عبد الرحمن بن فطيس (ـ ٤٠٢) الذى كان عنده ستة وراقين يشتغلون بنسخ الكتب ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه فان قدر عليه ابتاعه والا انتسخه ورده عليه ، وبلغ من كثرة كتبه ان بيعها استغرق عاما كاملا كما يذكر ابن بشكوال (٨) •

---

(١) الحيوان ، حـ ١ ، ص ٦٠ (ط • مصطفى الحلبى ، ١٩٣٨ بتحقيق عبد السلام هارون) •

(٢) الفهرست ، ص ١٤٤ (ط • المكتبة التجارية ، ١٣٤٨ هـ) •

(٣) تجارب الامم ، حـ ٢ ، ص ٢٢٤ (ط • مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤ /١٩١٥ بتحقيق هـ • ف • أمدروز) •

(٤) أحسن التقاسيم ، ص ٤٤٩ (ط • ليدن، ١٩٠٦ بتحقيق ت•م •ج • دى جوج) •

(٥) معجم الأدباء ، حـ ١٣ ص ٩٧ (ط ٢، دار المامون، ١٩٣٨/١٩٢٢ بتحقيق مرجليوث)•

(٦) Maoter pieceo of peraian Art p. 151 (N.Y., the Dryden preoo, n.d.)

(٧) نفح الطيب ، حـ ١ ،ص ٣٠٢ (ط • ليدن ، ١٨٦١/١٨٥٥ بتحقيق ـ • دوزى وآخرين) •

(٨) الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ، حـ ١ ، ص ٢٩٩/٢٩٨ (ط • مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ، ١٩٥٥) •

وفي مصر والشام كانت المكتبات الخاصة اقل انتشارا ، وكانت مقصورة على الطبقة الحاكمة وكبار العلماء كخزانة يعقوب بن كلس (ـ ٣٨٠) بالقاهرة ، وخزانتى سيف الدولة (ـ ٣٥٦) والفارابى (ـ ٣٣٩) في حلب ٠

ولكن أعظم المكتبات الخاصة في تاريخ الاسلام هى تلك التى ارتبطت بقصور الخلافة في كل من بغداد والقاهرة وقرطبة ٠ ففى بغداد انشا الرشيد خزانة الحكمة في أواخر القرن الثانى ، وداب المامون على جلب الكتب اليها من كل حدب وصوب ، فبعث الى بلاد الروم والى قبرص من ياتيه بتراث الأمتين العظيمتين في التاريخ القديم : اليونان والرومان ٠

ولم تكن خزانة الحكمة هذه مجرد مخزن للكتب كما قد يوحى بذلك اسمها ، وانما كانت مركزا للثقافة باوسع معانيها فقد كانت منتدى للعلماء وقاعة بحث للدارسين ، وكانت الىجانب ذلك مركزا لترجمة الكتب ونسخها٠وبتعبير العصر الحديث نستطيع أن نقول انها كانت مركزا للترجمة والنشر٠ ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا انها كانت مسرحا لاكبر حركة ترجمة شهدها التاريخ العربى ، ومن لم ارتبطت بها أسماء كثير من المترجمين أمثال يوحنا بن ماسويه ويوحنا بن البطريق وحنين بن اسحق الذى جعله المتوكل على رأسها وجعل تحت يده كتابا « نحارير عالمين بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا » ٠ (١)

وفي قرطبة أنشا الحكم المستنصر (الذى ولى الحكم من سنة ٣٥٠ الى سنة ٣٦٦ هـ) مكتبة جمع فيها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله حتى بلغت اربعمائة الف مجلد في رواية المقرى (٢) ٠ وروى ابن خلدون انه كان لها اربعة واربعون فهرسة في كل منها عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين ، وآن الحكم « كان يبعث في الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويسرب اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه ، وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كله »٠ (٣)

وبعد انشاء مكتبة قرطبة بسنوات قليلة أنشا العزيز الفاطمى فيالقاهرة سنة ٣٧٨ مكتبة ضخمة وصفت بانها من عجائب الدنيا ، وروى المقريزى انها كانت تضم أكثر من مائتى الف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ، (٤) بينما ذهب أبو شامة الى انها بلغت المليونين ٠ (٥)

والى جانب المكتبات الخاصة وعلى رأسها مكتبات الخلفاء التى كان بعضها اقرب الى مكتبات البحث في العصر الحديث ، انتشرت المكتبات العامة منحدود الصين والهند شرقا الى حدود فرنسا غربا وشمالا ، فقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد او على المدن التى سكنوها واقاموا

---

(١) طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٦٩ (ط ٠ المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٥ بتحقيق فؤاد سيد) ٠

(٢) نفح الطيب ، حـ ١ ، ص ٢٥٦ ٠

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، حـ ٤، ص ١٤٦ (ط ٠ بولاق) ، ١٢٨٤ هـ) ٠

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، حـ ١ ، ص ٤٠٩ (ط٠ بولاق ، ١٢٧٠هـ)٠

(٥) الروضتين في أخبار الدولتين ، حـ ١ ،ص ٢٠٠ (ط٠ مطبعة وادى النيل ، ١٢٨٧هـ)٠

بها كما فعل الصاحب بن عباد الذى اوقف خزانة كتبه على مدينة الرى فاصبحت مكتبة عامة لها بعد وفاته .(١) وفي القرن الرابع الهجرى أسس جعفر الموصلى دارا للعلم في الموصل « جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب للعلم ، لا يمنع احد من دخولها اذا جاءها غريب يطلب الادب ، وان كان معسرا اعطاه ورقا وورقا » كما يروى ياقوت (٢) .

وفي كل من البصرة ورام هرمز أسس أبو على بن سوار احد رجال حاشية عضد الدولة دارين للكتب وصفهما المقدسى بان « فيهما اجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ » (٣) ومكتبة البصرة هى التى رحل اليها أبو العلاء وذكرها في رسالة الغفران ، ووصفها الحريرى في مقاماته بانها كانت منتدى المتادبين وملتقى القاطنين منهم والمغتربين .

وفي طرابلس الشام كان لبنى عمار في القرن الخامس دار للعلم اسسوها لنشر مذهبهم الشيعى وكانت بها مكتبة عامة يعمل بها اكثر من مائة وثمانين ناسخا كانوا يتناوبون العمل في الليل والنهار وقد قدرت كتبها في بعض الروايات بثلاثة ملايين مجلد .

وفي اوائل القرن السابع يحدثنا ياقوت عن عشر مكتبات عامة في مرو لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجوده ويقول ان بعضها كان في ابنية خاصة وانها جميعا كانت مجانية وكانت الاعارة الخارجية فيها بدون رهن (٤) .

واذا كانت المكتبات العامة اليوم تعتبر مقياسا لرقى الامم والشعوب ، فلقد سبق المسلمون امم العالم كله في انشاء هذا النوع من المكتبات . ولم تكن تلك المكتبات مباحة لمختلف فئات الشعب فقط كما هو شان المكتبات العامة اليوم ، وانما كان بعضها يقدم الاوراق والاقلام والمداد للرواد من طلاب العلم ، وكان بعضها الاخر يمضى الى ما هو أبعد من ذلك فيقدم لهم الطعام والشراب والنفقة كما كانت تفعل مكتبات البصرة ورام هرمز والموصل .

واذا كان ظهور المدارس في المجتمع الاسلامى قد تاخر الى القرن الخامس باعتبار ان المسجد كان المدرسة الاسلامية الاولى ، فلقد عرف المسلمون المكتبات المدرسية منذ عرفوا المدارس . فالمقريزى يروى لنا ان مكتبة المدرسة الفاضلية التى انشاها القاضى الفاضل في القرن السادس بالقاهرة بدات بمائة الف مجلد(٥) . ويحدثنا ابن الاثير انه في سنة ٥٨٩ هـ امر الناصر لدين الله العباسى «بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها من الكتب النفيسة الوفا لايوجد مثلها» (٦) وفي سنة ٦٣١ تم بناء المدرسة المستنصرية على شط دجلة وكان بها خزانة كتب ضخمة زودها الخليفة بمائة وستين ، وقيل بمائتين وتسعين حملا من مكتبته الخاصة . وقيل ان الكتب التى نقلت اليها يوم الافتتاح بلغت ثمانين الف مجلد » (٧) .

---

(١) معجم الأدباء ، حـ ٦ ، ص ٢٥٩ .

(٢) معجم الأدباء ، حـ ٧ ، ص ١٩٣. والورق الدراهم .

(٣) احسن التقاسيم ، ص ٤١٣ .

(٤) معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٥٠٩-٥١٠ (ط. مكتبة الاسدى بطهران ، ١٩٦٥ بتحقيق فرديناند وستنفيلد).

(٥) المواعظ والاعتبار ، حـ ١ ، ص ٤٠٩ .

(٦) الكامل في التاريخ ، حـ ١٢ ، ص ١٠٤

(٧) الحوادث الجامعة ، ص ٥٤ (١ ط . المكتبة العربية ببغداد ، ١٣٥١ هـ بتحقيق مصطفى جواد) .

ومن الجدير بالذكر والتنويه ان مكتبات تلك المدارس كان يقوم عليها علماء اجلاء مثل الاسفرايينى اول خازن لمكتبة المدرسة النظامية وابن‌الفوطى المورخ خازن مكتبة المدرسة المستنصرية في أواخر القرن السابع الهجرى ·

والى جانب هذه الانواع المختلفة من المكتبات ، عرفت الامة الاسلامية مكتبات المساجد منذ اول العهد بالاسلام ، فقد كان المسجد مركز الاشعاع الفكرى والمكان الطبيعى لحلقات الدرس ومجالس الاملاء ، وكان وقف الكتب على المساجد ـ ولا يزال ـ شائعا في مختلف انحاء العالم الاسلامى ـ فقد ذكر المقريزى أن الحاكم أوقف الكتب على جامع ابن طولون وعلى الجامع الازهر في القاهرة ، وذكر ابن خلكان ان أبا نصر احمد بن يوسف السليكى المنازى (ـ ٤٣٧) « جمع كتبا كثيرة ثم وقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد » وانها كانت في أيامه لا تزال موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب المنازى (١) وذكر ياقوت أن من بين المكتبات العشر التى رآها في مرو سنة ٦١٦ خزانتين في الجامع بلغت مجلدات احداهما اثنى عشر الفا (٢) ·

ولا تزال ظاهرة ارتباط المكتبات الاسلامية بالمساجد ماثلة حتى أيامنا هذه في كثير من الدول العربية والاسلامية · فالجامع الازهر في القاهرة ، وجامع الزيتونة في تونس ، والجامع الكبير في صنعاء كل منها له مكتبته الضخمة التى تزخر بنفائس التراث العربى والاسلامى تحتفظ بها وديعة غالية تصونها وتؤديها لابناء الاسلام جيلا بعد جيل ·

● محنة المكتبات الاسلامية :

بهذه الانواع المتعددة من المكتبات التى ظهرت في شتى ارجاء الدولة الاسلامية منذ القرن الثانى الهجرى وما تلاه استطاعت الامة العربية أن تحتفظ بتراثها الاسلامى الخالد وبتراث الامم الاخرى القديمة مترجما الى لغة القرآن ، وظلت تلك المكتبات منارات حضارية شامخة تضىء للدنيا كلها سبل العلم والهداية على مدى خمسة قرون كاملة ، ثم بدأ المد الحضارى ينحسر عن ديار الاسلام ، وكان أول دلائل هذا الانحسار تلك النكبات المتلاحقة التى منيت بها المكتبات الكبرى وراح ضحيتها جزء كبير من تراثنا وتراث الانسانية ·

لقد عصفت بكنوز هذا التراث فتن وثورات داخلية متعددة بعضها عقائدى وبعضها سياسى · ويكفى ان نذكر هنا ما يحدثنا به صاحب الخطط من انه في سنة ٤٦١ هـ وما بعدها احرق عبيد المغاربة واماؤهم أوراق كتب مكتبة الفاطميين بالقاهرة واتخذوا من جلودها نعالا لهم · يقول المقريزى : « وبقى منها مالم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية الى اليوم في نواحى آثار تعرف بتلال الكتب » · (٣) وبعد سقوط الدولة الفاطمية استطاع رجال الدين ان يقنعوا صلاح الدين بان يقضى على المكتبة باعتبارها تراثا شيعيا يخشى منه على عقائد الناس ، فامر صلاح الدين وزيره القاضى الفاضل بان يختار منها ما يراه متمشيا مع عقائد اهل السنة وان يحرق الباقى ، فاختار القاضى الفاضل مائة الف كتاب وقفها على مدرسته الفاضلية بالقاهرة وبقيت بها الى ان بددتها يد الزمن ·

---

(١) وفيات الاعيان ، حـ ١ ، ص ١٢٦ (ط · مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨/١٩٤٩ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد)·

(٢) معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٥٠٩ ·

(٣) المواعظ والاعتبار ، حـ ١ ، ص ٤٠٩ ·

وفي الاندلس تعرضت مكتبة الحكم المستنصر لهزات عنيفة بعد وفاته وتبددت كنوزها عندما حاصر البربر قرطبة واقتحموها في مطلع القرن الخامس الهجرى ، ثم توزعها ملوك الطوائف بعد ذلك وتجمعت بقاياها في أواخر القرن السادس عشر بقصر الاسكوريال قرب مدريد . ويقدر عدد الكتب الاسلامية التى احرقت في أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بما يقرب من مليون كتاب .

والى جانب الفتن الداخلية كان العدوان الخارجى أشد فتكا بمقتنيات المكتبة الاسلامية ، فقد تعرض العالم الاسلامى لهجمات المغول من الشرق والصليبيين من الغرب . فحينما احتل الصليبيون طرابلس سنة ٥٠٢ هـ أحرقوا مكتبة بنى عمار . وحينما دهم هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ جعل من خزانة الحكمة طعما للنيران والقى ما تبقى منها في النهر حتى قيل ان مياه دجلة قد اسودت لكثرة ما ألقى فيها من مداد العلماء ، وان الكتب كانت من الكثرة بحيث كونت ثلاثة جسور معقودة يعبر عليها الناس.

ولقد كان تدمير المكتبات الاسلامية ونهبها على أيدى الصليبيين والمغول نهاية مرحلة حضارية حملت فيها الامة العربية مشعل الحضارة ومضت نضىء به للدنيا كلها طريق العلم والمعرفة . وكنتيجة طبيعية لتلك العاصفة التى اجتاحت الدولة الاسلامية من الشرق والغرب ، فقد اوت المكتبات الى المساجد والبيوت ، وتقلص دورها الحضارى فاصبحت مجرد مستودعات يتجمع فيها ما سلم من كتب التراث .

● المكتبة في العصر الحديث :

وتظل المكتبات العربية تعانى ما تعانيه شعوبها من تخلف حتى تتفتح عيون الامة العربية في مطلع القرن التاسع عشر على فجر جديد بدت تباشيره مع دخول الطباعة التى جعلت الثقافة في متناول عامة الناس وخاصتهم . وتتلفت الامة العربية حولها فتجد المكتبات الاوربية وقد تنوعت وأصبحت مراكز حية لنشر الثقافة بعد أن كانت متاحف للكتب ، وتجد هذه المكتبات وقد دخلت مرحلة التنظيم العلمى لمجموعاتها بما يتطلب ذلك من اعداد الفهارس وخطط التصنيف والاعمال البيليوجرافية .

ونتيجة لانتشار التعليم بين مختلف طبقات الامم والشعوب ، ونتيجة لتطور الطباعة وكثرة ما تخرجه المطابع من الكتب والصحف والنشرات وغيرها من صور النشر الحديثة ، أصبح من العسير على أى مكتبة ــ مهما كانت امكانياتها ــ أن تجمع كل ما ينشر على ظهر الارض ، بل أصبح من العسير أن يتسع مبنى أى مكتبة ــ مهما بلغت ضخامته ــ لمتابعة سيل الانتاج الفكرى الذى يتدفق من المطابع كل يوم .

وكما أدى سيل المعرفة الجارف الى استحالة أن يلم فرد واحد بجميع اطرافها ، والى ضرورة التخصص في فرع واحد من فروعها المتشعبة ، كذلك تضافرت هذه العوامل جميعها وأدت الى التخصص في أنواع المكتبات ، فظهرت الى جانب المكتبات القومية والمكتبات العامة أنواع أخرى أهمها المكتبات الجامعية والمدرسية والمتخصصة .

ومنذ منتصف هذا القرن الذى نعيش فيه بدأت المكتبات الاوربية تفيد من منجزات العلم الحديث في مجال التصوير فاستعملت وسائل مختلفة اهمها الميكروفيلم والميكروسترب والميكروفيش لنقل المواد المكتوبة او المطبوعة على أفلام ، واستعملت وسائل أخرى لنقلها على الورق اهمها الميكروبرنت والميكروكارد والميكرولكس .

ولم يكن التصوير هو المجال الوحيد الذى افادت منه المكتبات في تيسير الخدمات لروادها ، فلقد وجدت المكتبات نفسها في مواجهة عصر جديد اصطلح على تسميته بعصر تفجر المعلومات ، فبينما كان عدد المجلات العلمية في مطلع القرن الماضى لا يتجاوز المائة ، قفز هذا العدد الى اكثر من مائة الف في السنوات العشر الاخيرة ، وبلغ مجموع ما ينشر من مقالات علمية أكثر من مليون ونصف مليون مقالة سنويا .

وهذا التتابع السريع والمنتظم للمعلومات ، وخاصة في مجال العلوم والتكنولوجيا ، ثم الطلب الدائم المستمر لها دفع المكتبات للقيام بجمع تلك المعلومات وتسجيلها وتصنيفها واختزانها ثم تعريف الباحثين بها وتيسير اطلاعهم عليها وهو ما كان يعرف بالتوثيق Document ation حتى عهد قريب واصبح يسمى اعلاما inform ation في السنوات الاخيرة .

ومنذ الحرب العالمية الثانية بدأت الآلات الحاسبة الالكترونية تستخدم في عمليات اختزان المعلومات واسترجاعها وبذلك وضع العلم الحديث كل امكانياته في البحث ، واتاحت الوسائل الالكترونية للمكتبات أن تصبح مراكز توثيق واعلام .

ومازال الطريق أمام العلم والتكنولوجيا طويلا ، وما زال هناك الكثير من الطاقات كامنا لم يتفجر بعد ، وما زالت الثورة العلمية منطلقة نحو غايتها للكشف عن أفضل الطرق لمتابعة الانتاج الفكرى وتنظيمه وخدمته وتيسيره للراغبين فيه .

● مكتباتنا وتحديات العصر ؟

وأمام حركة التوسع المكتبى في العالم ، وأمام تحديات العصر ، تقف مكتباتنا الان شبه معزولة عن ماضيها وعن ظروف عصرها ، فقد تقطعت الاسباب بينها وبين أمجاد الماضى ، وبعدت المسافة بينها وبين ما وصلت اليه المكتبات الغربية في العصر الحديث بفضل ما أتيح لها من منجزات العلم ووسائله . وأصبحت المكتبة في مجتمعاتنا في حالة أشبه ما تكون بحالة انعدام الوزن . وليس يخفى على أحد أن المكتبة ظاهرة حضارية تزدهر كلما ارتقت الامة وأخذت باسباب التقدم والنماء ، وتتجمد وتنكمش عندما تتخلف الامة وتتدهور أوضاعها الثقافية والحضارية . فالفارق بين مكانة المكتبة عندنا اليوم ومكانتها عند الاجانب فارق حضارى في جوهره . أما التخلف في اتباع أحدث النظم المكتبية وفي استخدام وسائل العلم الحديث فهى مظاهر وأعراض لهذا التخلف .

وينبغى الا يغيب عن بالنا أن الغربة التى تحس بها مكتباتنا مصدرها أنها لا تخاطب الا قدرا ضئيلا من المجتمع يتمثل في أولئك الذين نالوا حظا من التعليم وأصبحوا قادرين على مواصلة القراءة اما بقية أفراد المجتمع من الاميين الذين لم تتح لهم فرص التعليم ومن خريجي المدارس الابتدائية الذين قصرت بهم ظروفهم أو قدراتهم عن أن يستكملوا دراساتهم فارتدوا أميين أو أقرب ما يكونون الى الأمية فليسوا من جمهور المكتبات .

واذن فالامية تقف سدا منيعا يحول بين نسبة كبيرة من الجماهير العربية وبين المكتبات .

فاذا تركنا الاميين لحالهم وانتقلنا الى الفئة المثقفة أو على الاقل الفئة القادرة على ممارسة القراءة وجدنا غالبية هذه الفئة مشغولة طول يومها في أعمالها ، وما يتبقى من وقت للراحة تتنازعه مغريات ثلاثة أولها الصحف اليومية والمجلات التى تصدر بصفة منتظمة حاملة اليهم الاخبار والتحقيقات الصحفية والمصورات التى تغريهم بها ولا تترك لهم وقتا ينفقونه في القراءة المثمرة . وثانيها الراديو

الذى لا يكف عن الكلام طول النهار وشطرا كبيرا من الليل ، ولا يكلف الناس مشقة القراءة ، بل لا يتطلب منهم معرفتها أصلا . وقد استطاعت أجهزة الترانزستور الحديثة أن تخلص الاذاعة من أسر الكهرباء وأن تنقلها الى الريف والحضر والى السهل والجبل .

أما ثالث المغريات فهو التليفزيون ، وهو أشد خطرا على القراءة من الراديو لانه لا يكتفى بالكلمة وانما يدعمها بالصورة ، وهو بذلك لا يخاطب السمع وحده وانما يخاطب السمع والبصر معا ومن ثم يجذب المشاهدين ويشدهم اليه ويربطهم به ويصرفهم عن كل شيء سواه .

وليست هذه المغريات الثلاثة هى وحدها التى تصرف الناس عن قراءة الكتب وارتياد المكتبات ، وانما يشاركها فى المسئولية أنظمة التعليم والامتحانات عندنا . فالتعليم فى مراحله المتوسطة يعتمد على الكتاب المدرسى . وحتى هذا الكتاب المدرسى يضيق به الطلاب فيعمدون الى الملخصات والمختصرات يحفظونها ويفرغونها على أوراق الامتحانات فينجحون دون أن يقرأوا حتى الكتب المدرسية نفسها .

وفى جامعاتنا ، أو على الاقل فى كثير من كلياتها يستطيع الطالب أن يقضى أربع سنوات يحصل بعدها على الدرجة الجامعية دون أن تطأ قدمه أرض المكتبة . وبرامج الدراسة ونظم الامتحانات مسئولة عن هذه المأساة . وأقول مأساة لان العملية التعليمية مستمرة مدى الحياة ، وفترة التعليم الجامعى هى فترة التفتح فى حياة الانسان ، فاذا ضاعت منه دون أن يوسع مداركه بالقراءات المتنوعة والمتعمقة ودون أن يتعود البحث العلمى فانه يعجز عن متابعة تعليم نفسه بعد انتهاء دراسته العالية ، ويصبح تعليمه العالى مجرد امتداد واستمرار للتعليم الثانوى .

ان المعرفة مدونة فى بطون الكتب ، وليست وظيفة الجامعة فى العصر الحديث أن تحشو أذهان طلابها بالمعلومات وانما وظيفتها الاساسية أن تعرفهم كيف يصلون الى تلك المعلومات عندما يحتاجون اليها . وهنا يأتى دور المكتبة فى تلك المرحلة الهامة من مراحل التعليم . ومن أجل هذا لم يحدث أن قامت جامعة من الجامعات دون أن تقوم فى قلبها مكتبة تتناسب مع حجم الجامعة ونوع الدراسة فيها .

وأمام هذه التحديات الاربعة : الصحافة والاذاعة والتليفزيون ونظم التعليم ، تحاول مكتباتنا فى العصر الحديث أن تجد لها مكانا بين أجهزة الثقافة والتعليم . ولن تفلح فى أن تأخذ مكانها اللائق بها الا اذا جعلت من حاضرها امتدادا لماضيها ، والا اذا أفادت من كل المنجزات والمكتشفات التى وضعها العلم الحديث فى خدمة الانسان .

ولا ينبغى لاحد أن يتصور أن علينا أن نمر بنفس المراحل التى مرت بها الامم المتقدمة حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، فذلك شيء لايسمح به عصر السرعة الذى نعيش فيه . وانما الذى علينا هو أن نعبر تلك الهوة التى تفصل بين حاضرنا وماضينا ، وبين حاضرنا وحاضر غيرنا ، بمعنى أن نعى أمجاد مكتباتنا الاسلامية ونستوعبها ، وأن نقفز فورا الى أقصى ما وصل اليه العلم الحديث لخدمة البحث والباحثين فنتمثله ونستفيد منه .

وكثير من الناس تبهرهم مكتشفات العلم الحديث ، وليس ذلك فى حد ذاته عيبا ، وانما العيب أن ننسى أنفسنا فى غمرة الحماس لكل ما هو جديد . ذلك أن الامة التى تنسى ماضيها كالانسان الذى يفقد ذاكرته فيفقد معها الماضى والحاضر والمستقبل جميعا .

د . عبد الستار الحلوجى